الدرس (٠٣١) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد عقد النووي رحمه الله تعالى في كتابه رياض الصالحين بابًا عظيمًا في الاستقامة في بيان مكانتها ومنزلتها العظيمة.

قال المصنف أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى:

٨- باب في الاستقامة

والمراد بالاستقامة أي على دين الله عَزَّوَجَلَّ بملازمة طاعته وعبادته، وفعلِ أمره، وترك نهيه، وألَّا يكون الإنسان منحرفًا عن صراط الله المستقيم، وشرعه القويم، الَّذِي أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عباده بلزومه، ويترتَّب عليها سعادةُ الدُّنيا والآخرةِ، وفلاحُ العبدِ وصلاحُ أمرِه كلِّه؛ فحقيقٌ بالنَّاصح لنفسِه الرَّاغب في سعادتِها أن يُعْنَى بالاستقامة عظيمَ العنايةِ علمًا وعملًا وثباتًا على ذلك إلى الممات، مستمدًّا العونَ من الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وقد أورد المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ تحت هذه التَّرجمة عددًا من آيات القرآن الكريم، وحديثين من سُنَّة النَّبِيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، في بيان الاستقامة وعظيم شأنها.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢].

هذه الآية فيها الأمر بالاستقامة، وأنه يجب أن تكون في ضوء أمر الله وشرعه، لا أن يأتي المرء بأعمال لا أصل لها في الشَّرع، ولا دليل عليها في كتاب الله وسُنَّة نبيِّه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، بل

تكون استقامته موافقة لأمر الله، لا تفريط فيها ولا إفراط، امتثالًا لأوامر الله واجتنابًا لنواهيه، على وجه المداومة على ذلك.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: "فأمره أن يستقيم هو ومن تاب معه ، وأن لا يجاوزوا ما أمروا به ، وهو الطغيان ، وأخبر أنه بصير بأعمالهم ، مطلع عليهم ، وقال تعالى : {فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم }. قال قتادة : أُمر محمدٌ ﷺ أن يستقيم على أمر الله . وقال الثوري : على القرآن".

قال المصنف رحمه الله تعالى:

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ [فُصِّلت:٣٠-٣٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأحقاف:١٣-١٤].

في هذين الموضعين من كتاب الله عز وجل بيانٌ لثمرة الاستقامة، وعظيم أجر المستقيمين، وما أعدَّه الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم من الأجور العظيمة، والثَّواب الجزيل.

فالموضع الأوَّل من سورة فُصِّلت، فيه أنَّ مَن يؤمن بالله، ويستقيم على شرعه؛ تتنزَّل عليه الملائكة، قيل: هذا التَّنزُّل عند الموت، وقيل: في القبر، وقيل: يوم الحشر، وقد ذكر الإمام ابن كثير رحمه الله أنَّ الآية تشمل ذلك كلَّه، وهذا التَّنزُّل من الملائكة هو تنزُّلٌ من ملائكة الرَّحمة بالبشارة لهذا الَّذِي آمن واستقام، تُبشِّره وتطمئنه قائلةً له: لا تخف ولا تحزن، لا تخف، أي: ممَّا أنت قادمٌ عليه، ولا تحزن أي: على ما أنت مفارقه.

﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ﴾ يُبَشِّرونه بأنَّه من أهل الجنَّة، وأنَّه سيفوز بدخولها، يُبَشِّر بذلك عند موته، وفي قبره.

﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: تولَّيناك بالتَّوفيق والتَّسديد والحفظ والإنعام والإكرام في دنياك وأخراك.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: الجنَّة، ﴿مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي: أنَّ مَن يكرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بدخولها، له فيها من النَّعيم ما تشتهيه وتطلبه نفسه، ممَّا لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وكذلك الآية الَّتِي تليها من سورة الأحقاف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أنَّ المؤمن بالله، المستقيم على شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا خوفٌ عليه ولا حزن، بل هو من أهل الجنَّة من الفائزين بثواب الله العظيم، وأجره الكبير.

كان الحسَنُ البَصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : إذا قَرأ قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبُّنَا فَارْزُقْنَا الاستقامَةَ»(١).

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٨٥- (وَعَنْ أَبِي عَمْرٍو، وَقِيلَ: أَبِي عَمْرَةَ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ. قَالَ: «**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢)).

يُعَدُّ هذا الحديث من جوامع كلم النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإنَّ سفيان رضي الله عنه طلب من النَّبِيِّ قولًا جامعًا، ووصيَّةً جامعةً، لا يحتاج بعدها إلى سؤال أحدٍ غير النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فأوصاه بكلمتين: «**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ**» لكنَّهما جمعتا الخير كلَّه.

أمَّا الإيمان بالله فهو الأصل الَّذِي تبنى عليه الأعمال، والأساس الَّذِي يقوم عليه الدِّين، ولا يكفي في الإيمان بالله، النُّطق باللِّسان، والاعتقاد في القلب، بل يجب أن يصدق ذلك بالقيام بالأعمال الصَّالحة، وأن يلازم الاستقامة على شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى الممات،

---

(١) رواه ابن المبارك في الزُّهد والرَّقائق (١٤٤٦).

(٢) رواه مسلم (٣٨).

ولهذا قال: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ استَقِمْ» أي: استقم على شرع الله، ودينه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حتى يأتيك اليقين.

فهذا الحديث جمع الدِّين كلَّه، فقوله: «آمَنْتُ بِاللهِ» فيه العقيدة، وقوله: «ثُمَّ اسْتَقِمْ» فيه الشَّريعة، ودين الله عقيدةٌ وشريعة، علمٌ وعمل، فيجب على العبد أن يكون كذلك، وهذه حقيقة الاستقامة على شرع الله و دينه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يكون العبد ملازمًا للإيمان، مجتهدًا في تحقيقه، ملازمًا الاستقامة على شرع الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «والاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القيم من غير تعريج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها، الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك، فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها».

وقال ابن القيم – رحمه الله –: «فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين؛ وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد»

وينبغي أن نعلم في ضوء هذا الحديث العظيم أنَّ حقيقة الاستقامة لزوم دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وسلوك صراطه المستقيم، وعدم الانحراف عنه ذات اليمين أو ذات الشِّمال، وهي تتعَلَّق بالأعمال والأقوال، والأحوال والنِّيَّات، بأن تكون لله، وبالله، وعلى أمر الله:

لله إخلاصًا، وبالله استعانةً، وعلى أمره اتِّباعًا، والتزامًا بشرعه.

فهذه حقيقة الاستقامة الَّتِي رتّب عليها الثَّواب العظيم، والأجر الجزيل في الدُّنيا والآخرة.

وأصل الاستقامة: استقامة القلب على أمر الله، وخشيته من الله، ومراقبته لله، وحفظه لأوامر الله، فإذا استقام القلب على ذلك، استقامت الجوارح، روى الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم –، أنه قال: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه».

فأصل الاستقامة استقامة القلب، فالقلب إذا صلح واستقام تبعه البدن؛ لأنَّ القلب ملك الأعضاء، فإن استقام القلب استقامت، وإن اعوجَّ القلب اعوجَّت، كما جاء في الحديث عن

نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أنَّه قال: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»(٣).

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٨٦- (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بعَمَلِهِ**»، قالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

وَ«المُقَارِبَةُ»: القَصدُ الَّذِي لَا غُلُوَّ فِيهِ وَلَا تَقْصيرَ، وَ«السَّدادُ»: الاستقامة والإصابة.

وَ«**يتَغَمَّدني**»: يلبسني ويسترني.

قَالَ العلماءُ: مَعنَى الاستقامَةِ لُزُومُ طَاعَةِ الله تَعَالَى، قالوا: وهِيَ مِنْ جَوَامِعِ الكَلِم، وَهِيَ نِظَامُ الأُمُورِ؛ وبِاللهِ التَّوفِيقُ).

هذا الحديث العظيم، حديث أبي هريرة رضي الله عنه، فيه بيان لحقيقة الاستقامة، **وأنَّ الاستقامة على درجتين:**

إحداهما أعلى من الأخرى، والدَّرجة العليا في الاستقامة هي درجة السَّداد، وهي: أن يكون العبد مصيبًا للسُّنَّة، وموافقًا لهدي النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بالقيام بالفرائض والواجبات والرَّغائب، هذه درجة.

والدَّرجة الثَّانية: المقاربة، إن لم يتمكَّن من السداد يجتهد أن يكون قريبًا منه، ولا يبعد بنفسه عن خطِّ الاستقامة وطريقها، بل يجتهد في المقاربة، ويمكن أن يُشبَّه هذا بمثال: عندما يرمي الإنسان نَبْلَه إلى هدف معيَّن، السَّداد هو أن يصيب الهدف بدقَّة، والمقاربة أن يكون حول الهدف، أمَّا أن يعطي الإنسان الهدف ظهره، ويتَّجه إلى جهة أخرى، فهذا بعيد كُلَّ البعد عن الاستقامة.

---

(٣) رواه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٤) رواه البخاريُّ (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

إذًا؛ مطلوبٌ من العبد إمَّا أن يكون على السَّداد، أو يقارب منه بمجاهدته لنفسه، وجدِّه واجتهاده.

ثمَّ ليعلم العبد أنَّه مهما جدَّ في عمله، وتقرُّبه، وعبادته، لن ينجو من النَّار، ولن يفوز بالجنة بعمله مُجَرَّدًا، ولهذا قال: «**وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ**» وفي رواية أخرى: «**لَا يَدْخُلُ أَحَدُكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**» أي: مهما كان العمل، ولهذا قال الصَّحابة رضي الله عنهم: (وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟) وهذا فيه: أنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أكمل النَّاس عبوديَّةً لله، وأعظمهم استقامةً على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولزومًا لشرعه، قال: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**».

فإذًا؛ العمل مهما بلغ لا يكون سببًا للنَّجاة، أي: على وجه المقابلة، بل عمل الإنسان لا يكون مكافئًا لنعم الله عليه في هذه الحياة الدُّنيا، فكيف بالثَّواب العظيم الَّذِي في الدَّار الآخرة، لكن العمل سبب، ولهذا قال الله في القرآن: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النَّحل:٣٢]، أي: بسبب الأعمال، لكنَّها ليست على وجه المقابلة والمعاوضة والمكافأة، بحيث أنَّها مكافئة أو مقابلة لهذا العمل، مهما بلغ العمل.

وممَّا يستفاد من هذا الحديث: أنَّ الاستقامة على حسب الاستطاعة، و: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، إن استطعت السَّداد، فهذا أعظم ما يكون، فإن لم تستطعه فقارب منه.

ويستفاد منه: تفاوت أهل الإيمان، وأنَّهم ليسوا فيه على درجةٍ واحدة، بل هم على مراتب. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢].

ومما يستفاد منه: أنَّ المرء يجب عليه أن يحذر من أن يعجب بنفسه أو أن يغترَّ بعمله، مهما كان عمله، ومهما كانت عبادته، ومهما كانت طاعته، فلا يعجب بعمله، ولا يعجب بنفسه، وليحذر من التَّزكية لنفسه.

وممَّا يستفاد منه: فضل الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ومكانتهم العليَّة، وما كانوا عليه من مسارعة في الخير، وحرصٍ عليه، واستقامة على طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وحرصٍ على أخذ العلم نقيًّا صافيًا من الرَّسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

هذا وليعلم أن الاستقامة بيدِ الله سبحانه وتعالى وهو الهادي إلى صراطه المستقيم، فليطلبها العبد من الله ، وقد كانَ أكثرُ دعاءِ النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم -: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، وهذا هو الثَّبات على الاستقامَةِ.

قالت أمُّ سَلَمة رضي الله عنها: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! أَوَ إِنَّ القُلُوبَ لَتَتَقَلَّبُ؟ قَالَ: «نَعَمْ؛ مَا مِنْ خَلْقِ اللهِ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلَّا أَنَّ قَلْبَهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله، فَإِنْ شَاءَ اللهُ - عز وجل - أَقَامَه، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ» .

فالاستقامةُ بيَد الله، ومَنْ أرادَها لنفسِه؛ فليطْلُبها منَ الله، وليُلِحَّ في السُّؤال، وقد جاء في «صحيح مسلم» من حديث عائشة - رضي الله عنها - أنَّها سُئِلت: بأيِّ شيءٍ كانَ النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - يفتَتِحُ صلاتَه من اللَّيل؟ قالت: إذا قامَ من اللَّيل افتتَح صلاتَه: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

ولمَّا كان هذا المطلَبُ - أي: سؤالَ الله تعالى الهدايةَ والاستقامة- أعظمَ المطالبِ وأجلَّها؛ أوجبَ الله - سبحانه وتعالى - على عباده أن يسألوه الهدايةَ إلى صراطِه المستقيم مرَّات متكَرِّرةٍ في اليوم واللَّيلة، وذلك في سورة الفاتحة: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة:٦،٧]، قال بعضُ أهل العلم: ينبَغي أن يُنبَّه العوامُّ على أنَّ هذا دعاءٌ؛ فعندما تقرأ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} تذكر أنك تدعو اللهَ بهذه الدَّعوة العظيمة الَّتي أوجبَها الله عليكَ سبع عشرة مرَّة في اليوم واللَّيلة بعدد ركعاتِ الصَّلاة المكتوبة.

ولهذا ينبَغي على المسلم أنْ يستَشعِر أنَّ هذا دعاءٌ؛ وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: «تأمَّلتُ أنفعَ الدُّعاء، فإذا هو سؤال العَون على مرضاتِه، ثمَّ رأيتُه في الفاتحة في {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة:٥]» ، وقال رحمه الله: «أُمر العبدُ بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامة» .

فمطلوبٌ من العبد أن يداومَ على هذا الدُّعاء سؤالِ الله الهدايةَ إلى الاستقامة، وهو موجودٌ في سورة الفاتحة أعظم سور القران.

رزقنا الله أجمعين الثبات على الحق، والهداية إلى صراطه المستقيم؛ إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل. وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.